

# « اللص والكلاب »

## بين « الرجل الذي فقد ظله »

بقلم يوسف الشاروني



برجل في الستين ما يلبث أن يموت ، وكانت بينها وبين يوسف علاقة حب وصلت الى حد الخطبة ، بل انه حدد يوما لزوجاه منها ، ثم وجد أن زواجه هذا يعوقه عما يتطلع اليه من مجد وثروة ، واذا به يتركها ليسافر الى سوريا حيث كان قد وقع انقلاب سياسي ليحقق مجدا صحفيا ، وذلك في اليوم نفسه الذي حدده لزوجاه منها . كذلك داس على استاذة محمد ناجي ، الصحفي الكبير الذي عن طريقه دخل عالم الصحافة ، واذا به يطرده بل ينتزع منه مكانه انتزاعا ، حتى ينهار الرجل ويسرع الى نهايته . أما صديقا شوقي وسعد فقد ألقى بأحدهما في السجن بينما أصبح الآخر مجرد حطام .

\* \*

ومن الملاحظ أن كلا الروائين قد كتبت بضمير المتكلم أساسا ، وأن استخدم ضمير المخاطب أحيانا في رواية « الرجل الذي فقد ظله » ، وضميرا المخاطب والغائب في « اللص والكلاب » ، لكن هذه الضمائر ، ما تزال ملاصقة لضمير المتكلم ، والشخصية ما تزال اما تخاطب نفسها واما تتكلم عن نفسها .

واستخدام ضمير الغائب في « اللص والكلاب » قد أتاح للمؤلف حرية التدخل حين يريد ، بصفته العالم بكل شيء ، ولو أنه أباح لنفسه هذا التدخل في اضييق الحدود . أما « الرجل الذي فقد ظله » فإن المؤلف لا يعطي لنفسه هذه الحرية أو هذا الحق في التدخل فلا يستخدم ضمير الغائب ، ولكنه استعاض عن هذا القيد بالشكل الرباعي للرواية ، فقد استطاع أن يكشف لنا عن زوايا أخرى لشخصياته من خلال وجهة نظر الشخصيات الأربعة .

ولكن ليس يكفي ان يستخدم ضمير المتكلم ليكون الأسلوب واحدا في الأجزاء الأربعة لرواية « الرجل الذي فقد ظله » فالجزء الثالث الخاص بمحمد ناجي له أسلوب يفاير أسلوب الأجزاء الثلاثة الأخرى ولعله أقرب أجزاء الرباعية الى اللص والكلاب من ناحية الأسلوب .

فالحوادث في الأجزاء الأولى والثانية والرابعة من « الرجل الذي فقد ظله » تتسلسل منطقيا وتخضع للمعاقب الزمني ، أي انها - وان كانت بضمير المتكلم - إلا أن سردها يتم عن طريق حديث واع مما ننطق به أو نكتبه ، أما الجزء الثالث فأسلوبه تنداعي فيه المعاني طبقا لما يشهده الحاضر بغض النظر عن ترتيب وقوعها الزمني ، ولا تناسب بين أطوال السرد ، فقد استغرق سرد أحداث ليلة واحدة نصف حجم الكتاب .

ولكن ليس معنى هذا ان الأسلوب بعيد كل البعد عن المنطق ، بل هو - فيما عدا أجزاء قليلة - كأسلوب اللص والكلاب ، نوع من المونولوج الذي يفترض ان له سامعا ، فهو أقرب حديث غير منطوق الى الحديث المنطوق ، انه أشبه بتلك الكلمات التي نعددها قبل ان نهم بالكتابة او الكلام مع الآخرين ، يتخلل من حين لآخر كلام منطوق على شكل حوار يقع في الحاضر او في صورة تذكر لهذا الحوار .

ومع ذلك فاننا نلتقي ببعض الفقرات التي تزداد فيها سرعة الانتقال من مستوى الكلام المنطوق الى مستوى ما قبله ثم تعود اليه لتتراجع من جديد ، كما نجد في نهاية الجزء الخاص بمحمد ناجي حيث يعلن قائلا : « دوى قطار يسير داخل رأسي ، لابد ان اشكو ، لا أراهما ، ضباب فوق عيني ، ولكنني مازلت أجلس الى المائدة ، الطعام في حلقي ، ماذا

من أهم الأعمال الأدبية التي ظهرت أخيرا في أدبنا العربي المعاصر روايتان ، أحدهما « اللص والكلاب » لنجيب محفوظ ، والآخرى « الرجل الذي فقد ظله » لفتحي غانم . وقد نشرت كلتا الروائيتين أولا على حلقات في الصحف قبل أن يجمع الكتاب شتاتها . وقد بدأ فتحي غانم بنشر روايته قبل أن يبدأ في ذلك نجيب محفوظ ، ثم انتهى منها بعد انتهاء « اللص والكلاب » . ذلك أن « الرجل الذي فقد ظله » تبلغ أكثر من خمسة أمثال « اللص والكلاب » في الطول ، فمجموع صفحاتها ٧٤٠ صفحة على وجه التحديد ، وبذلك تكاد تكون أطول رواية ظهرت في أدبنا العربي المعاصر بعد ظهور ثلاثية نجيب محفوظ .

وقارئ الروائتين يلحظ كثيرا من أوجه المقارنة بينهما سواء في اختيار بعض الشخصيات أو في الأسلوب ، وليس معنى هذا أن أحدهما أخذ عن الآخر أو تأثر به ، بل مرد ذلك في رأيي الى وحدة البيئة الأدبية والبيئة الاجتماعية التي أنتجت العملين .

فشخصية الصحفي الوصولي نجدها في العملين ، نجدها في شخصية « رؤوف علوان » في رواية « اللص والكلاب » ، ونجدها في شخصية « يوسف عبد الحميد السويقي » في رواية « الرجل الذي فقد ظله » ، ونحن لا نلتقي بأحدهما حتى نتذكر زميله على الفور مع اختلاف في التفاصيل .

فقد كان رؤوف علوان فيما مضى : « الحماس الباهر الممثل في صورة طالب ريفي رث الثياب كبير القلب ، والقلم الصادق المشع ، ترى ماذا حدث للنديا ؟ » وهو « لم يكن فيما مضى إلا محررا بمجلة النذير ، مجلة منزوية بشوارع محمد علي ، ولكنها كانت صوتا مدويا للحرية . ترى كيف أنت اليوم يا رؤوف ؟ فهل تغيرت مثل يا نبويه ، هل ينكرني مثلك يا سناء ؟ » . ثم يكتشف اللص سعيد مهرا ن بعد خروجه من السجن أن صديقه الصحفي رؤوف علوان لم يبق من شخصه القديم إلا صورته فتألم قائلا : تخلفني ثم ترد ، تغير بكل بساطة ففكر بعد أن تجسد في شخصي ، كي أجد نفسي ضائعا بلا أصل وبلا أمل ، خيانة لثيمة لبو اندك المقطم عابها دكا ما شغيت نفسي .

ولكن رؤوف علوان ليس البطل الرئيسي في قصة « اللص والكلاب » بل هو اللص سعيد مهرا ن الذي كان ضحية أقرب الناس اليه وهم زوجة نبوية وصديقه عيش سدره وصغيرته سناء التي لم تعرفه ، ثم استاذة رؤوف علوان ، هؤلاء هم الذين انكروه فخلقوا منه مجرما يعاديهم ويعادي المجتمع .

أما بطل « الرجل الذي فقد ظله » فهو « يوسف عبد الحميد السويقي » احد هؤلاء الجناة ، وهو في سبيل الوصول الى الشهرة والثروة ، فقد ظله ، وظله هم أقرب الناس اليه ، فأصبحت نفوسهم ضائعة بلا أصل ولا قيمة ولا أمل على حد تعبير سعيد مهرا ن ، وكما أصبح سعيد مهرا ن لصا وقتالا ، أصبحت مبروكة زوجة أبي يوسف عاهرا ، وكانت خادما تزوجها أبوه وهو في الستين ، فلما مات زوجها مضت تلاحق ابنه تطلب مموته ، ولكنه فر خجلا منها حتى اضطرت ان تبسج جسدها لتتحصل على لقمة العيش . كذلك أصبحت سامية خطيبته مجرد ممثلة فاشلة تنزدي في هوات اليأس وتزوج وهي في العشرين

وقد لجا نجيب محفوظ الى أسلوب مشابه في قصة « اللص والكلاب » فليس ثمة تعاقب زمني للحوادث ، فالص يقص علينا حاضره اولاً ، ومن حين لآخر ، يترد الى ماضيه ، بلا ترتيب زمني . فهو مثلاً يسرد كيف نشأت علاقته بنبوية زوجته السابقة قبل ان يسرد علينا كيف كانت نشأته وعلاقته في طفولته بابه وبالشيوخ الجديدي ثم بالصحفي رؤوف عاوان .

والرمز خاصية من خصائص الفن الروائي في « اللص والكلاب » نجده في الاسلوب لاسيما على لسان الشيخ الجنيدى الذي يستخدم لفته الصوفية المشحونة بالرمز دائما . ونجده في الشخصيات والامكنة، فرؤوف علوان « رمز الخيانة التي ينطوي تحتها عيش ونبوية ، وجميع الخونة في الارض .. فالرصاصه التي تقتل رؤوف علوان تقتل في الوقت نفسه العيب » . ونور ترمز - كما يدل على ذلك اسمها - الى جانب النور في حياة سعيد مهران ، ولعل القرافة التي يطل عليها بيت نور - وهي البني التي لجا اليها سعيد مهران مختفيا عن عين الشرطة - لعلها رمز للدنيا التي يلتقي فيها الموت بالحياة كما يرى الدكتور لويس عوض ، ولعلها رمز للتيه والضياح كما يرى الدكتور شكري عياد . أما اللص نفسه فهو رمز للملايين : ان من يقتلني انما يقتل الملايين ، انا الحلم والامل وفدية الجبناء ، وانا المثل والمزاء والدمع الذي يفضح صاحبه . والقول بانني مجنون ينبغي ان يشمل كافة العاطفين فادرسوا اسباب هذه الظاهرة الجنونية واحكموا بما شئتم .

ونحن نجد ان أسلوب سعيد مهران ، هو أسلوب الفحشية ، فهو يخاطب رؤوف علوان قائلا : ترى أقرر بخيانتك ولو بينك وبين نفسك ، أم خدمتها كما تحاول خداع الآخرين ؟ الا يستيقظ ضميرك ولو في الظلام؟ أود ان أتفد الى ذاتك كما نفذت الى بيت التحف والمرايا بيتك ؟ ولكني لا اجد الا الخيانة . ساجد نبوية في ثياب رؤوف او رؤوف في ثياب

- التتمة على الصفحة ٧٥ -

صدر حديثا :

الطبعة الثالثة من

# سائر والرهودية

كتاب لا بد ان يقرأه كل من يريد ان يفهم آثار سائر

تأليف

ر. م. البيدي

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

مَنَوَات دَارِ الْآدَابِ - بَيْرُوت

تقول له . لا اسمها . كل شيء يذهب ... يتعد .. يخفت ..) وهنا نجد نراجعا الى مناطق من الشعور اكثر ابهاما وغموضا ، حيث تؤدي الافكار المتداخلة والجمل القصيرة وظيفية فنية ، اذ انها تلخص لنا في سطور قليلة العمل الفني كله . وكانما الماضي - مختلطاً بالحاضر - يستيقظ امامنا . ومعرفتنا السابقة بتفاصيل حياة محمد ناجي هسي وحدها التي تنقذنا من عدم الفهم ، لانها ليست سوى اشارات ورموز للحياة الداخلية الخاصة بصاحبها لا يدركها الا من اتبع له الاطلاع عليها من قبل . وكما كانت هذه الكلمات تعبر عن صحوة الموت بالنسبة لمحمد ناجي ، فاننا يمكن ان نستدير التعبير نفسه لنقول انها تعبر ايضا عن صحوة النهاية بالنسبة للعمل الفني .

ولعل هذا الجزء الخاص بمحمد ناجي قد كتب بهذا الاسلوب ليعبر عن مدى أزمة بظلة لانه كان اشد اجزاء الظل اهتزازا ، فبعد ان وصل الى ماوصل اليه نراه في هذا الجزء وهو « يتدحرج » ويبدو ان هذا الاسلوب كان انسب الاساليب للتعبير عن هذا التدحرج ... عن هذا الفزع الذي يصيب الإنسان وهو يسقط من حلق ، فمضى يعترف لنا وكانما هو نصف مستيقظ ونصف نائم .

ويبلغ أسلوب بعض فقرات هذا الجزء درجة من الشفافية والشاعرية وهي ترتفع الى مرتبة الرمز ، ولتقرأ هذه الفقرة وفيها يرمز الهبوط على السلم الى الهبوط عن مركزه ، ويرمز الطفل الى يوسف عبد الحميد السويهي الذي انتزع منه مركزه ، الى بقية الرموز التي لا تخفى على القاريء ، يقول محمد ناجي :

كيف صعدت هذا السلم بالامس ؟ اني لا اكد اقوى على الهبوط عليه . اين شجاعتك يا محمد .. اين شطارتك ومكرك .. لانظر الى اسفل حتى لا يصيبك الدوار ، تجاهل انك تهبط ، ارفع رأسك، واهبط كأنك صاعد ، شد قامتك ، لا تسال كم طابقا هبطت ، لا تسال . صوت بيانو يخرج من هذه الشقة ، انغام حزينه جنائزية ، البيانو يدق فسي قلبي ، يخلعه . السلم مظلم ، لا ، عيناى مظلمتان ، لا تقف يا محمد ، الهث . تاوه . ولكن حرك قدميك . هذا الطفل الواقف عند الباب عيناه تشبهان عيون القطط ، ينظر الي في خبث ، نظراته خطيرة ، انه يرقب حركاتي ، يسخر مني ، يعرف اني عجزوز ، آه ، ارفع رأسك ، الطفل يسرع ورائي ، يقفز درجات السلم قفزا ، هبط ، التفت الي، عيناه حادتان . نعم يا ابني ، انا لا استطيع ان اهبط مسرعا مثلك . انت اشطر مني .. الشارع طويل بلا نهاية ، الضوء ساطع يبهز عيني ، الزحام شديد الضجة عالية ، ليس هذا عالمي ، انهم يمرون مسرعين ، حركاتي البطيئة تمرقل حركتهم . اكتافهم تضرب كتفي ، عيونهم تنظر شزرا ، ماذا تفعل ايها العجزوز وسطنا ، اذهب الى سريرك وادخل المصححة ، ليس لك مكان بيننا . لا يمكنني ان اواصل السير . ساسقط بعد الخطوة القادمة . الشارع يدور والناس يدورون ... ما بالك تنهار في الساعة الاخيرة ، سيمر هذا العذاب وستستريح .

وعندما يفشل محمد ناجي في احدى محاولاته الجنسية نفهم ان عجزه ليس الا رمزا لعجزه كإنسان ، وان عجزه الذي ينتهي بموته ليس الا رمزا لتلاشي العهد الذي كان محمد ناجي المثل الفكري والمعبّر الروحي عنه .

وفي احدى الفقرات نستمتع الى محمد ناجي يقص كيف قتل توني كلب صديقه الفنية المرحومة دلال امام زوجته ساميه ، وكانما قتل الكلب بديل عن انتحاره ، فهو يقول : كنت أريد ان اقتل الكلب بيدي . اريد ان اقضي على هذا الكابوس في رأسي .

ونحن نعتز على حادث مشابه في رواية « من أين » للمؤلف نفسه، حين نقرأ كيف قام الصحفي يوسف ، فقتل الفأر الوديع المستانس امام علياء حبيبته التي تركته ، أي في ظروف مشابهة لتلك التي قتل فيها محمد ناجي كلب عشيقته ، وكان القتل في هذه المرة ايسا يؤدي الرمز السابق نفسه .

وتقف خاتمة الرباعية الى جانب هذا الجزء في شفافية الاسلوب ورؤيته ، وكانما كتب أيضا في لحظة من لحظات النشوة التعبيرية .

## الفن الروائي

- تنمة المنشور على الصفحة ١١ -

نوية ، او عيش سدره مكانهما . ستترف لي الخيانة بانها اسمح رذيلة فوق الارض .

اما يوسف فاسلوبه اسلوب الجاني ، وهو يحصى صحبايه قائلا : شوقي صاحب المبدأ في حمايتي ، سعد الذي تخلى عن مبادئه فسي حمايتي ، شهدي صاحب المال في حمايتي ، محمد ناجي الذي انهيار في حمايتي . مبروك ليست في حمايتي ، انها تتحداني ، البغي ، الخادمة لا تموت .. مارووع ان يكون الانسان قويا ، مارووع ان يمشي الانسان القادر فوق أشلاء صحبايه .. اني احطم اصدقائي واحدا بعد الاخر ، اعود الى انسان مفترس لا يكثر بشيء ..

هذه نعمة الجاني ، وكان يمكن ان تكون نعمة رؤوف علوان فسي قصة اللص والكلاب لو انه فتح فاه وتكلم .

ولنستمع الى آفات الضحايا لكل من الشخصيتين ، ان اللص سعيد مهران يتساءل متوجعا : رؤوف علوان ، خبرني كيف يغير الدهر الناس على هذا النحو البشع ... أنت رؤوف علوان صاحب القصر ، أنت الثعبان الكامن وراء حملة الصحف ؟ تود ان تقتلني كما كان الآخرون ، وكما تود ان تقتل ضميرك ، وكما تود ان تقتل الماضي . لكني لا اموت قبل ان اقتلك . أنت الخائن الاول .

وفي الجزء الاول من « الرجل الذي فقد ظله » نرى مبروك فسي مطلع الفصل الاول تقول : قلبي لا يعرف سوى عاطفة واحدة هي الحقد ، أحقد بكل شياي ، أحقد بعمرى . أحقد على رجل اتمنى موته موتا بطيئا يتعذب فيه ، اتمنى لو فتحت بطنه بسكين ، ومددت يدي فسي جرحه ، وانتزعت كبده ونهشتها بأسناني ، اتمنى لو دفعت أظفاري في عينيه وفاقتهما ، لو شربت من دمه .. اسمه يوسف ، يوسف عبد الحميد ابن المرحوم من زوجته الاولى .

وفي الجزء الثاني نستمع الى الممثلة الناشئة سامية تتحدث فسي مطلعها قائلة : دنيا السينما غابة مليئة بالذئاب .. كلهم ذئاب « وأمثالهم بالنسبة للصوص سعيد مهران كلاب » .. حتى الصحفيون الذين يحومون

## مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

ثقافتنا

تونس العربية

روح الاسلام

ترجمة جميل جبر

ارض الانبياء

ثورة افريقيا

روابي افريقيا الخضراء

تأملات وجودية

لمعان في محافظاته

ساطع الحصري

احسان حقي

سيد امير علي

الادب الاميركي

عبدالله فيليبسي

مادها باتيكار

همنفواي

زكريا ابراهيم

الندوة اللبنانية

حولنا في الاستديوهات يلتقطون اخبارنا لينشروها هم ايضا ذئاب . لقد ضاعت مني فرصة العمر بسبب واحد من هؤلاء الصحفيين ، انه رئيس تحرير الان ، صحفي مهم مشهور ، كل الناس تعرفه وتتحدث عنه ، لكنهم لا يعرفونه على حقيقته ، انا وحدي التي تعرفه ، انا وحدي التي تستطيع ان تقول من هو يوسف عبد الحميد .. من اجله تركت فرصة العمر ، ورفضت دور البطولة ، اما هو فما كادت تبرق امامه الفرصة حتى رفضني بقدومه ، وتركني اندحرج وانحدر ، ومضى هو يرتفع .. ويرتفع وحده .

ومحمد ناجي استاذ يوسف عبد الحميد السويقي في الصحافة والوصولية يتن قائلا : الان تغير كل شيء ، اخذ مكاني ، ذلك الصلوك العبقري في التفاني استاذ التفاني ، يوسف عبد الحميد السويقي ، شيء مضحك يشير الرئاء ، هذا الولد اصبح اهم واخطر مني .

حتى يوسف يدرك نفسه ، فهو يقول : اني مجرم ، خاطري حقيرة ، تنحدر بي الى الحضيض . اهذه هي المهارة المطلوبة ؟ الا يوجد حل شريف اخر ؟ .. عيبي الكبير اني اعمي الجريمة .

لهذا فبطل « الرجل الذي فقد ظله » فيه سمات البطل التراجيدي ، لان ضميره معذب ، لانه ارتفع الى مرتبة الوعي بخطئه ، لانه يناقش نفسه .

اما سعيد مهران ، بطل اللص والكلاب ، ففيه سمات البطل الملحمي ، فهو مثله يؤمن بفكرة ، لا يتردد في محاولة تنفيذها مهما لاقى من عقبات .

وهذا الموقف التراجيدي للرجل الذي فقد ظله جعل رواية فتحي غانم اكثر تافؤا ، لان عذابه ، واعتراجه ، وندمه - وان لم يصل الى درجة التفكير - معناه ادانة للشر ، وانه لا ينتصر حتى في نفوس اصحابه ومنفديه .

اما سعيد مهران ، فبعد ان تختفي نور من حياته يختفي كل نور من حياته ، وتحيط به الكلاب من كل جانب ، حتى ليعجز عن تحديد مصدر نباحها ، فيستسلم يائسا لمطارديه وهو يتن قائلا : لا امل في الهروب من الظلام بالجري في الظلام ، نجا الاوغاد وحياتك عبت .

وهذا شبيه بما حدث لضحايا « الرجل الذي فقد ظله » فيما رووه لنا في الاجزاء الثلاثة الاولى ، ولولا اننا حصلنا على اعتراف الجاني ، على اعتراف يوسف عبد الحميد السويقي في الجزء الرابع ، لما كانت رواية الرجل فقد ظله اقل تشاؤما . وان كان انهيار محمد ناجي في الجزء الثالث دلالة على انهيار الشر ، وذلك بسبب موقفه الفريد بين شخصيات القصة ، اذ انه اشترك في الجريمة ، فقد كان استاذ يوسف في الوصولية ، الا انه مالبت ان اصبح ضحية جريمته وقرينة تلميذه ، ومصير نبوءة بمصير يوسف ، فهزيمته اذن هزيمة الشر في الماضي والمستقبل .

اما سعيد مهران ، فبالرغم من انه كان لصا ثم قاتلا ، الا ان معرفتنا بالمبررات التي ادت به الى هذا المصير ، جعلت منه الضحية وغيره الجناة ، ورغبته في الانتقام تمثل عصا العدالة ، او - على أكثر تقدير - الشر الذي يعاقب الشر ، وكلما طاشت رصاصاته واصابت أسرياء أحسنا ان العدالة تطيش ، وهزيمته ليست الا هزيمة للعدل او لرغبتنا في الثار من الشر ، واستسلامه ليس الا استسلاما للجناة او من يسميهم بالكلاب .

فمنصر التافؤ في رواية « الرجل الذي فقد ظله » مرده اذن الى شكلها الروائي ، فنحن في « اللص والكلاب » لا نستمع الا الى وجهة نظر اللص سعيد مهران في نفسه وفي الآخرين ، ولعلنا لو حصلنا على اعتراف رؤوف علوان لاكتشفنا هنا ايضا نفسا معذبة مؤرقة ، ولكن ما من سبيل الى التحقق من ذلك ابدا .

اما في رواية « الرجل الذي فقد ظله » فان شكلها الروائي ، واعني به انقسامها الى اربعة اجزاء ، كل جزء ترويه احدى الشخصيات على لسانها ، أتاح لنا ان نستمع الى وجهة نظر كل شخصية في علاقتها بالبطل ، كما أتاح لنا ان نستمع الى اعتراف البطل على نفسه ، مما جعلنا اكثر نرفا على الحقيقة ، وأكثر استكمالا لجوانبها .

يوسف الشاروني